

ميكانيزم التبرير

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نابل

مدرس الفلسفة بمدرسة شين السكوم الثانوية

من الصعب على المرء أن يقر بعجزه وأن يتقبل برضى فشله وقصوره ؛ فتراه يلجأ إلى وسائل وجيل عدة يستر بها هذا العجز والإخفاق . ومن ضمن الوسائل التي يلجأ إليها المرء شاعراً أم غير شاعر لتقوية مركزه أمام نفسه وأمام الغير التبرير . والتبرير حيلة معروفة تشيع في مسائلنا الإنسانية وضروب الاستجابة المختلفة التي نتخذها بإزاء المشاكل التي تصادفنا في الحياة على الرغم مما في التبرير من شذوذ كوسيلة من وسائل التوافق . ومعرفة علماء النفس بميكانيزم التبرير عامة . ولعل مرجع ذلك صلته بعمليات التفكير وأنه أكثر الميكانيزمات صلة بمعالجة المحتويات اللاشعورية بطريق شعورى . وبعبارة أوضح يمكن القول بأن الاستجابات التبريرية سواء أكانت لفظية أم حركية تعبر عن أثر المحتويات اللاشعورية .

ويمكن أن يعرف التبرير بأنه « تفكير خاطئ يستخدم لكي يفتح أو يخفي الدوافع اللاشعورية للسلوك والشعور » . وعلى ذلك يمكن القول بأن التبرير أحد الحيل الدفاعية : فهو دفاع ضد معرفتنا للدوافع اللاشعورية في حياتنا اليومية ، وحيلة كثيراً ما نجد أنفسنا شاعرين أو غير شاعرين مضطرين إلى سلوكها لكي نظمّن على سيطرتنا ونفوذنا . فهو طريقة يضحك بها الإنسان على نفسه لكي يبدو بها أكثر قدرة ونجاحاً والتزاماً لقواعد الخلق عما هو في حقيقته . فالتبرير أشبه ما يكون بالستار الذي نضعه لكي يستر ضعفنا وفشلنا حتى لانضطر إلى مواجهتهما بطريق مباشر . مثال ذلك التلميذ الذي يتلمس الأعذار لرسوبه في الامتحان بحجة عدم الاستعداد له ؛ وحقيقة الأمر أن الامتحان كان من الصعوبة بدرجة لا تسمح له باجتازه .

على أن هناك اعتبارات رئيسية لا بد من ذكرها لتوضيح طبيعة التبرير وهذا يتحقق عن طريق تبين الدوافع النفسية التي تدفعنا إليه . فيلاحظ الباحث في تحليله لعملية التبرير أموراً ثلاثة : أولاً أن النتيجة قد انتهى منها وغالباً ما تكون عملاً قام به المرء لأن التبريرات غالباً ما تكون تفسيرات لضروب من السلوك قد وقعت بالفعل . ويلاحظ ثانياً أن المقدمة الكبرى قد قررت بدورها هي الأخرى ؛ لا يجد المرء بها خطأ معيناً إلا أنها لا يمكن أن تكون تقريراً أميناً لما هو حاصل بالفعل . والطابع المميز للتبرير هو البحث عن حالة خاصة يستخدمها المرء كمقدمة صغرى إذا ما استخدمت مع المقدمة الكبرى تؤدي بشكل قاطع إلى النتيجة التي يشهدها المرء . ولعل المثال الآتي يوضح ما قلناه . وهو يدور حول تلميذ لا يميل إلى المدرسة وجوها فيتعمد الحضور متأخراً . وصل هذا التلميذ المدرسة متأخراً ولما أرسل إلى الجهات المختصة شعر بضرورة ذكر سبب ليبرر به عدم وصوله في الميعاد . فالتأخير هو السلوك الذي عليه أن يبرره . وقد يكون من ضمن الأسباب الحقيقية لتأخيره كراهية التلميذ للمدرسة والضغط الذي يلاقه في المنزل لكي يحصل على سجل ينطق بحسن سير عمله الدراسي ؛ ورغبته في أن يعبر عن كراهيته لوالديه بطريقة مأمونة لعدم تقديرهم إياه في المنزل وعلى أية حال ، فإن التلميذ يشعر بالسبب الأول — أى كراهيته للمدرسة — شعوراً غامضاً ولا يشعر مطلقاً بالسبب الثاني — أى الرغبة في إظهار كراهيته لوالديه . وعندما يضطر إلى ذكر سبب تأخيره يتلمس عذراً وجهاً ألا وهو تأخير المواصلات وازدحامها . والقياس في هذا المثال على النحو الآتي :

المقدمة الكبرى : إذا ما حدث تأخر في المواصلات أصل إلى المدرسة متأخراً

المقدمة الصغرى : حدث تأخر في المواصلات .

النتيجة : تأخرت في وصولي إلى المدرسة .

والتمييز بين التبرير والتفكير الصحيح كالتمييز بين الاستدلال الناجح والاستدلال الحقيقي . فالاستدلال الحقيقي يتمثل في الحالة التي تكون عليها الأشياء مرتبطة ارتباطاً جوهرياً وضرورياً بالنتيجة التي علينا أن نحققها . والاستدلال الناجح يتمثل في حالة اخترتها من بين عدة حالات — كان من الممكن اختيارها — تتضمن تفسيراً مصطنعاً أو مصاحباً .

ويبدو لنا بوضوح من هذا التحليل أن هناك حقائق قد أغفلنا النظر عنها في

التبرير ، وهذا ضرورى ما دامت هذه الحقائق مكونة الأمر الذى يترتب عليه أن يكون المرء غير شاعر بها . ففى التبرير يغفل المرء عن الأمور التى تهدد كيانه ويتشبث بالأمور التى تساعد على تحقيق هذا التكامل المفتعل فى شخصيته . ولعل مما يساعد على توضيح عملية التبرير أن نذكر الدوافع النفسية التى تؤدى بالمرء إلى التبرير . فالتبرير جهد يرمى إلى احتفاظ المرء بقوته وسيطرته بإغفاله الدوافع الحقيقية التى يترتب على الاعتراف بها شعور المرء بما يتقص من شخصيته كالحجل والشعور بالذنب . ففى التبرير لا يكتسب السلوك كما هو الأمر بالنسبة للميكانيزمات الأخرى ، ولكنه محاولة لتسوية معنى السلوك أو دلالة ليبدو مقبولا بالنسبة لنموذج الحياة . فبلجأ المرء إلى التبرير كى لا يجرح شعوره بالسيطرة والعزة بمعرفة الدوافع الكامنة للسلوك الذى يشعر بضرورة تبريره . فالتبرير هو أولا وبالذات مجهود يرمى إلى التوفيق بين دافع ملح مسيطر ومطالب السلوك فى المجتمع ؛ وبهذا المعنى يكون التبرير مجهوداً يرمى إلى حل الصراع بين دافع غريزى أساسى والذات العليا أو المثل الحضارية التى يكون المرء حساساً بإزائها .

ويظهر التبرير دائماً على صورة محاولات من جانب المرء لتبرير موقفه إزاء الآخرين ، ولكنه فى حقيقة الأمر محاولة للتوفيق بين النزعات المتصارعة فى داخل الإنسان . فقد يدفعنا إلى التبرير محاولة التقليل من قيمة نجاح ومجهود الغير الذى نشعر نحوه بعداء . أو نكون معه فى منافسة . فنحاول ما وسعنا أن نجد الأدلة والأسباب التى تمكننا من حط قيمة السلوك والدوافع التى تدفع الغير .

ويتميز التبرير كطريقة من طرق التفكير بعدم المرونة والحمود والعناد . مادام المرء فى عملية التبرير لا يشعر بالحرية المطلقة فى البحث عن التفسيرات الممكنة أو فى اختيار سبب يبدو من الوجهة المنطقية البحتة أكثر جوهرية واتساقاً فإن عليه أن يحصى تفكيره بطرق مفتعلة تتم فى أغلب الأحيان عن طريق التأكيد المبالغ فيه والعناد المصاحب له . والظواهر التى تكشف عن عدم مرونة التفكير فى عملية التبرير أنه عادة ما يصحبه أو ما يعقبه نهيج انفعالى ، والانفعال يترتب عليه — كما هو معروف — عدم المرونة والمبالغة فى الاستجابة فكأن العقل منقسم إلى مناطق منطقية منفصلة تمام الانفصال وكل منها مقفل على نفسه . وهذا ما يعبر عنه بطريقة تصويرية فى اللغة الإنجليزية بالعبارة الآتية :

logic-tight compartments of the mind

فالشخص الذى يبرر هو شخص غير متسق مع نفسه : فقد يكون من أنصار التفكير الحر فى الفلسفة ولكنه فى الوقت نفسه من أصحاب الميول الرجعية فى السياسة أو الاقتصاد ، وقد يدافع عن الطمأنينة الاجتماعية ويساهم بنشاط فى مشروعات الإحسان المتنوعة ولكن حينما يتعلق الأمر بإقرار قانون يترتب عليه أن يحد من دخل مؤسسة يستغل فيها أمواله أو بزيادة الضرائب عليها فإنه يتخذ موقفاً مخالفاً كل المخالفة لما هو معهود فيه . ويظهر الشخص فى هذا الموقف وكأن هناك حواجز فى عقله تمنعه عن إدراك علاقة التلازم بين الطمأنينة الاجتماعية من ناحية والتوازن الاجتماعى من ناحية أخرى قد يتحقق عن زيادة الضرائب لصرفها على المشروعات الاجتماعية .

ويمكن أن يتعرف المرء على التبرير بعلامات واضحة متميزة . فنجد محاولة من جانب الشخص فى تصيد الأسباب أيا كانت كما يمكن أن يحدد المدى الذى يتجنب فيه المرء التبرير فى تفكيره باتساق فكره وخلوه من زلات المنطق . فإذا حدث فى مناقشة ما أن ظهرت محاولة التبرير فى كلام المتحدث ولم يكتشفها الشخص الذى يناقشه أو إذا ما اكتشفها ثم حاول المتحدث على الرغم من ذلك أن يستمر فى تبريره ، فإن المرء يعرف أن التبرير « يعمل » .

وهناك طريقة مضمونة لاكتشاف ميكانيزم التبرير عن طريق ملاحظة كمية الانفعالات التى تظهر فى مناقشة ما . فالمرء الذى تكشف أفعاله وأعماله عن تبرير ما كثيراً ما يثور إذا ما اعترض عليه أحد . فالرجل الذى يفكر مطمئناً إلى حجة يرحب بالمناقشة ويسرد أدلته ويتخلى عن رأيه إذا ما اقنع برأى آخر مدعم بحجج منطقية . ويمكن اكتشاف التبرير أيضاً عن طريق ملاحظة فترات التوقف التى تحدث فى عملية التداعى الحر . وهذه ظاهرة معروفة فى ميدان التحليل النفسى فالمرء يصمت فترة ما حينما تفضى به سلسلة التداعى إلى محتويات تثير قلقه أو إلى أفكار يشعر نحوها بالضيق وغالباً ما تكون ذات صلة وثيقة باللاشعور . وكثير منا قد لاحظ فى حياتنا اليومية أن بعض الأفراد يحاولون تغيير دقة الحديث أو تظهر على وجوههم علامات الضيق والاشمئزاز إذا ما اتجه الحديث وجهة لا يرضون عنها . ويمكن اعتبار التبرير قناعاً تتخفى به الذات أمام نفسها . فنلاحظ أننا نرغب فى حماية الذات بعدم الاعتراف بالدوافع الغريزية العارمة التى لا يرضى عنها الجزء الرافى من شخصيتنا لأنها أمور غير مرغوب فيها . وكثيراً ما نسمع من أشخاص

إذا ما سألناهم عن دوافع سلوك معين العبارة الآتية « والله ما أنا عارف عملت كده ليه » وقد يكون الشخص صادقاً في إجابته لأن الدافع في هذه الحالة يكون لاشعورياً ولكن المرء قد يجد غصاضة في الاعتراف بالدوافع التي أدت إلى هذا السلوك فيلجأ إلى هذه العبارة لتغطية نقائصه . وغالباً ما تكون هذه الدوافع غريزية عنيفة كالردافع إلى الانتقام وغيره من الدوافع الغريزية البدائية التي لا يقرها المجتمع . ولكي نحقق تكامل الشخصية بمعنى ما ونجد الحيل التي تجعل جميع أنواع السلوك مقبولة نلجأ إلى تبرير هذه الدوافع الغريزية . بيد أن التكامل في هذه الحالة ليس بالتكامل الصحيح لانتهاء الانساق الحقيقي بين أجزاء الشخصية . على أن هناك ملاحظة وجيهة لا بد من الإقرار بها وهي أن المرء يبرر سلوكه أمام نفسه أولاً وإذا ما اقتنع يحاول إقناع الغير بصحة سلوكه . والمهم هنا أن التبرير يبدأ في هذه الحالة بإقناع الذات ثم إقناع الغير .

ولقد وضع Hollitcher^(١) أن التبرير يمكن أن يكون صحيحاً أو مخطئاً ، في مقال له يعزز به رأى أرنست جونز ، وهو بهذه النظرة يعم من مفهوم لفظ التبرير فيجعله شاملاً لجميع صور التبرير التي ترمى إلى سد الفجوة بين اللاشعور والشعور سواء أكانت هذه التبريرات صحيحة أم مخطئة . ففي رأيه أن تفسير السلوك الذي يكشف بحق عن دوافع لاشعورية هو تبرير بنفس الدرجة التي يكون عليها السلوك الذي يهدف إلى سر الدوافع اللاشعورية أو يحاول تشويهاها . ولكننا لا نوافق على هذا الاتجاه لأننا نعتبر التبرير دائماً قناعاً تتخفى به الذات أمام نفسها .

ولقد أشار فرويد^(٢) إلى معنى مخالف تمام المخالفة لما ذكرناه . ويتمثل هذا المعنى في قوله أننا نميل نحو إضافة أشياء أو معان تجعل الحلم معقولاً عند سردنا له . ولقد فسر ذلك بأننا نجد من الصعب قبول الأحلام التي تبلغ درجة التشويه فيها حداً كبيراً فنضطر حينئذ إلى إضافة أشياء جديدة تضيء على الحلم معنى ما وينظر فرويد إلى هذا الميل الذي يهدف إلى جعل آثار اللاشعورية متفقة مع منطق الواقع على أنه ضرب من ضروب التبرير .

ولا يقتصر التبرير على محاولة الإنسان تبرير أعماله فقط بل يتعدى الأمر إلى محاولة المرء تبرير أعمال الآخرين الذين تربطهم به صلة كأن يشعر أن هؤلاء الأشخاص

Hollitscher, "On the concept of Psychological Health & Illness", in International (١)
Journal of Psychoanalysis, 24, 1943, 125-140.

Freud, "New Introductory Lectures in Psychoanalysis" P. 34

(٢)

جزء منه أو أنه مسئول عنهم . فالألم تفسر سلوك ابنها الشقي بأنه متعب . ويظهر في هذا المثال أن الأم في سلوكها هذا المسلك إنما تحاول أن تدافع عن نفسها وعن طفلها في نفس الوقت بتبرير عجزها عن تقويم ابنها لأنها تنظر إلى الطفل على أنه « بعض » منها . وإذا ما عممنا القول فإننا نجد لدينا ميلاً عاماً لتبرير فشل أو هزيمة الحزب السياسى الذى ننتمى إليه . ومن الملاحظات الطريفة التى شاهدها الكاتب أن ناظر إحدى مدارس المعلمين قال بلهجة يشوبها الانفعال عند هزيمة فريق الملاكمة بمدرسته إن فرقته لم تنل من التمرين حظاً كافياً فسلوكه هذا إنما يقوم على أساس من الميل العام إلى أن توحد ونطابق بين أنفسنا والمعاهد التى ننتمى إليها . فكان هزيمة النادى هزيمة لنا .

وهناك وجه شبه بين التبرير والإسقاط . ففي الإسقاط يتخلص المرء من أخطائه بنسبها إلى الأشخاص والأشياء . فبالقدر الذى يحاول به المرء عن طريق التبرير أن يعزو السبب الحقيقى لسلوكه الناجم عن دوافعه الشخصية إلى الظروف الخارجية أو بإلقاء اللوم على الآخرين ، ففي هذه الحالة يكون التبرير بالإسقاط .

وإذا كنا الآن قد فرغنا من الاعتبارات الأساسية التى يجب على الباحث مراعاتها بصدد ميكانيزم التبرير ، فعلينا الآن أن نسرد نماذج من السلوك يتضح فيها التبرير ويبدو أن أفضل طريق على الباحث أن يسلكه هو أن يوضح للقارئ فقط الأشكال المتنوعة البارزة من أشكال التبرير حتى يكون القارئ واعياً لأى صورة من صور التبرير . وستقسم البحث إلى قسمين : القسم الأول ويبحث فى « حد الشخصية » Personality limitation والدوافع التى تدفع المرء إلى التبرير ؛ والقسم الثانى ويبحث فى ضروب الاعتذار المتنوعة التى كثيراً ما نلجأ إليها لتعفيينا من المسؤولية .

لكل شخصية حد لا تتجاوزه . وأى خطأ يقع فيه المرء يستدعى غالباً الرغبة فى تبريره وهناك مثل يقول إن الصانع العاجز يلقى اللوم دوماً على آلاته . وإذا كان فى الإمكان تحديد أى نوع من عدم المقدرة يكون فيه المرء أكثر حساسية وشعوراً بالنقص لكان لنا من ذلك موضوع دراسة شائقة . فلا يجد معظم الناس ضرورة الاعتذار عن عدم إجادتهم للموسيقى أو الفن فى حين نجد البعض الآخر يشعر بضرورة وجود مبررات وخلق الأعذار للقدرات العقلية . ومن المحتمل عدم الشعور بوجود هذا المجال الذى يشعر فيه المرء أنه أكثر حساسية بعجزه . ولعل مرجع هذا الضغط الذى يلاقه التلاميذ فى المدارس فى سبيل اجتياز الامتحانات . فإن

التلميذ سرعان ما يجد عذراً مقبولاً إذا ما أعوزه النجاح . وفي بحث أجرى على تلاميذ مدرسة أمريكية طرح السؤال الآتي على الطلبة الذين تركوا الدراسة بعد الصف الثامن : لماذا شعرت بضرورة الانقطاع عن الدراسة ؟ وأسفرت الإجابة عن جميع الأعذار المعروفة ، ولكن الأمر الذي يسترعى نظر الباحث أن الاعتراف بعدم القدرة والميل على الاستمرار في الدراسة كان أقلها بدرجة ملحوظة وغير متوقعة في نفس الوقت . . . فكثيراً ما يلجأ المرء الذي لا يستطيع دفعاً للاعتداء إلى إقناع نفسه بقدرته على فهم نفسيات الآخرين الأمر الذي يترتب عليه أن يعاملهم بشامح . . . وتفشل كثيراً من الآنسات في إيجاد علاقات حب بتوجهها الزواج لأن حياتهن لا تخلو من تثبيت (Fixation) على أشخاص ظهرن في حياتهن . وغالباً ما يكون التثبيت بالنسبة للأب . فيلجأن إلى التبرير زاعمات أن هذا الرجل يقضى معظم أوقاته في تتبع أنباء السباق ، وذلك الرجل يعوزه الدافع والرغبة في النجاح الذي يشدنه . . . الخ كل هاتيك الأسباب التي يدعيها تعللات باطلة .

وكثير من العصائيين يتخذون من شذوذهم وسيلة للدفاع عن أعمالهم المهوشة ويحاولون تبرير هذا الشذوذ على أسس ذات قيمة اجتماعية فذلك الرجل الذي يعانى من الانحصار « يصر » على أن يسود بيته الهدوء التام من الثانية إلى الثالثة بعد الظهر لينام يبرر إصراره على التزام الهدوء التام على أسس صحيحة . ولعل في هذا القول ما يفسر لنا تمسك بعض المرضى النفسيين بأمراضهم لأن المرض يعفيهم من القيام ببعض الأعمال البغيضة ويجعلهم أكثر اهتماماً في نظر الغير عما كانوا عليه من قبل . وتلعب المخاوف الوهمية والقلق دوراً كبيراً في استثارة التبرير سواء عن طريق اللفظ أم السلوك . فكثير من النساء يخشى الشيخوخة . ولقد نجحت صناعة التجميل إلى حد كبير في تأمين النساء ضد الشيخوخة . والخوف من الإهمال والفقر وضياح الهيبة من أهم العوامل التي تستثير التبرير .

وضعف الخلق (Character Weakness) من الدواعي الهامة التي تستلزم التبرير فالرجل الأناني يسوغ جريه وراء مصلحته الذاتية بقوله إنه لن يكون ذا فائدة لغيره إلا إذا كان صحيحاً ومكتفياً . ويظهر ضعف الخلق بصورة مقنعة في محاولة إلباس المصالح الشخصية ثوباً وطنياً . فالرجل الذي يساهم في المسائل السياسية مساهمة جدية ويدعم خزانة الحزب الذي ينتمى إليه بماله يبرر ذلك الاهتمام على أساس أنه يعمل على سعادة ورفاهية الشعب . ويؤكد القول بأن رفاهية الشعب لن تتحقق

إلا بتولى حربه مقاليد الحكم . وحقيقة الأمر أنه يطمع في مغامرات أكبر لن تتحقق إلا بتولى حربه الحكم .

وقد يكون التزوع نحو المثالية شكلاً من أشكال التبرير . فتعلق الشاب بمحبوبته إنما يتركز إلى حد ما على أسس جنسية . فالهيب الذي ينسب إلى محبوبته جميع صنوف الكمال ويقرض الشعر في مدحها والتغنى بفضائلها وينحو في حبها منحى مثالياً إنما يغفل عن الأسس الحسية الشهوانية التي كانت السبب في تعلقه وهيامه ويتعلل بمثالية تحجب عنه حقيقة الأمر .

وفي حضارتنا الحالية حيث ننظر إلى جميع العلاقات الجنسية التي لا ترتبط بميثاق الزواج على أنها أشياء محرمة يبدو من الضروري تبرير العلاقات الجنسية السابقة على الزواج . « فكأكثرين شابة عاطفية^(١) في السابعة عشرة من عمرها كانت على علاقة جنسية مع زميل لها في فصل من فصول المدرسة العالية . فبررت هذا العمل المنافي لتقاليد المجتمع زاعمة أنه لا بد لها من أن تحصل على خبرة جنسية ، هذه الخبرة الجنسية التي يجب على كل أنثى أن تعانها قبل الزواج . ولا يوجد رجل — على حد قوطا — يرغب في الزواج من امرأة « خام » في هذه الأمور » . فاتخذت الفتاة من « الجنس » علة تتعلل بها .

ومن الملاحظات الطريفة التي لاحظها كاتب هذا المقال الظاهرة الآتية : فلقد لاحظ أثناء تدريسه في السنة التوجيهية الأدبية استمرار ابتسام أحد الطلبة . ومن الغريب أن الكاتب كان يغضى النظر عن هذا السلوك في بعض الأحيان ويشاركه الابتسام أحياناً أخرى . وكان سلوك الكاتب موضع غرابته . فتدبر الأمر وانتهى إلى الرأي الآتي أن هناك كثيراً من أوجه الشبه بين هذا الطالب وأخ للمؤلف في ملامح الوجه . فالميكانيزم الذي كان يعمل في هذه الحالة هو ميكانيزم التحويل . ومن هنا يظهر أن التحويل — وهو ميكانيزم — استخدم كوسيلة للتبرير الذي تمثل في التغاضي عن ابتسام هذا الطالب . ومن المهم أن التحويل كان غير مشعور به . ولما عرف المؤلف حقيقة « التحويل » (transference) ظهر له أن التحويل كان وسيلة من وسائل إعفاء الطالب من اللوم . وبما لا شك فيه أن هذا الموقف يتجلى فيه التبرير ويظهر فيه أن « التحويل » استخدم كوسيلة من وسائل التبرير .

وإذا كنا الآن قد فرغنا من سرد أهم الدوافع التي تؤدي إلى عملية التبرير فعلياً

الآن أن نذكر ضروب الاعتذار المختلفة التي نلجأ لها لتعفيتنا من المسؤولية أو تخففها . فمن الشائع أن نسمع العبارات الآتية « لا أستطيع » كاعتذار يقدمه المرء لعدم رغبته في القيام بعمل من الأعمال ، أو « كان على أن أعمل كذلك » و « لا أستطيع لنفسى دفعا » كتفسير لعمل عدواني . كل هذه العبارات إنما هي أعتذار مقنعة نسوقها لستر عجزنا عن التكيف الصحيح ومواجهة الموقف مواجهة صريحة . وقد نتعلل بالميل وعدمه . فالفتاة التي لم تدع إلى حفلة الرقص تتعلل أنها امتنعت عن الذهاب لأنها لا تميل إلى الزحام . وقد يصر أحد الرجال على تدخين نوع فاخر من السجاير بحجة أن الأصناف الأخرى أقل جودة وأنه يجد متعة خاصة في تدخين هذا الصنف الفاخر . ولعل في التفسير الأخير كثيراً من الصحة . ولكن إذا ما تعمقنا في البحث قد نجد سبباً لاشعورياً لا يقل عن السبب السابق أهمية ألا وهو الرغبة الملحة في معاقبة زوجه التي تتحقق عن طريق استهلاك كمية كبيرة من النقود أكثر مما في مقدوره .

وكثيراً ما نلجأ إلى الظروف الخارجية كوسيلة نتخفف بها من المسؤولية « لقد وقفت ساعتي » و « لم تصل السيارة في ميعادها » و « الزحام شديد في المواصلات » كل هذه العبارات تطرق سمعنا كل يوم وفي استعمالنا لها راحة نفسية لأنها تخفف عنا المسؤولية وتجعلنا في نظر أنفسنا وفي نظر الغير أهلاً للقيام بأمر كثيرة . ولكن إذا ما أنعمنا النظر وجدنا أننا نجد في تصيد الأسباب حتى نبرر النفس أمام النفس وأمام الغير . وتعاذل هذه الأمور في الأهمية التعلل بعدم القدرة الجسمية كضعف البصر وتعب الأعصاب ، وكثيراً ما نتخفف من المسؤولية بخلع عيوبنا ونقائصنا على الغير . ويكون التبرير في هذه الحالة عن طريق الإسقاط . فنشكو من أن الغير قد وصل إلى مراكز لا يستحقها على الرغم مما اتصف به من عدم قدرة على الحزم في الأمور . ونسمع في محيط الطلبة الجامعيين أن أساتذتهم لا يساعدونهم المساعدة الكافية لكي يجتازوا الامتحانات .

ويلى لوم الإنسان للغير لوم الإنسان لنفسه كوسيلة نحتج بها والشعور بالحاجة إلى تحقير الذات Self-depreciation ليس بالأمر السهل إطلاقاً ، ولا يتضمن ميكانيزم التبرير على أنه الميكانيزم الوحيد الذي يعمل في هذه الظاهرة النفسية . فإن هناك دائماً طريقة ما تحول بها الميل إلى الاعتداء على الذات واتخذ صورة تحقير الذات . فذلك الرجل الذي يسوغ عجزه عن الاعتداء لضعفه لأنه

يلتزم قواعد الخلق القويم مثل لتوضيح ذلك . فقد تحول الميل من الاعتناء على الآخرين إلى الاعتناء على النفس واتخذ صورة تحقير الإنسان لنفسه ولومها . ومن المعروف أننا نتلمس كثيراً الأعذار لحوادث وقعت لنا . وحقيقة الأمر نجد أن هذه الحوادث قد نجمت عن أسباب لاشعورية . فالطفل الذي « وسخ » ورقته ولام نفسه على ذلك يكون سلوكه هذا ناجماً عن أسباب لاشعورية أو مقصودة وسلوكه هذا إنما يستر عجزه عن القيام بهذا العمل . ويعترف بعض الأشخاص صراحة بأخطائهم وهم بهذا الاعتراف إنما يعفون أنفسهم بطريقة لاشعورية من ضرورة تصحيح أخطائهم في مجال الواقع .

وقد تكون « الأهمية النسبية » وسيلة نحتج بها فإذا ما نبهنا التلميذ الذي يقرأ الصحف باهتمام وعناية بالغين إلى ضرورة استدكار دروسه اندفع قائلاً « ليس هناك ما هو أهم من معرفة الأنباء الجارية في العالم ، فيجب على المرء أن يعرف ما يدور حوله من أمور » . وهناك عذر آخر نتعلل به ألا وهو « ضرورة الخروج على القاعدة بحالة شاذة » . فكأن هذه الحالة الشاذة بخروجها على القاعدة العامة يبيع لها أن تكون صحيحة . ومن المشاهد أننا إذا ما سمحنا لطفل بأن يعمل أمراً مرة واحدة نجده يتشبث بها ويحاول أن يجعلها قاعدة مفروغاً منها فقد يرجو الطفل أمه في الخروج للعب قبل أن ينجز ما عليه من أعمال مدرسية فتجيز له ذلك . وحينما تحاول منعه إذا ما حاول نفس المحاولة مرة ثانية يجابهها القول « لكنك قد سمحت بهذا مرة » ومن هنا يبدو لنا أهمية السياسة الثابتة في معاملة الطفل وتربيته . ويشعر الذين يعانون من مخاوف وصنوف من القلق ترجع أصولها إلى عوامل لاشعورية دفينية ، ضرورة تبريرها عن طريق اتخاذ موضوع مادي محسوس لخاوفهم كالخوف من الأماكن المرتفعة والأماكن الضيقة . فيبدو الخوف من شيء مادي محسوس « بديلاً عن خوف من فكرة مدفونة في الطبقات الدفينة من اللاشعور . ولقد شاع في لغة علم النفس استعمال ميكانيزمي الحصر Sour grapes mechanism والليمون الحلو (الليمون الذي انقلبت حموضته إلى حلاوة) Sweet lemon mechanism كما سماه Gates ويفيد الأول أن ما كنا نشتهي لا يستحق أن يتال على الإطلاق ، فهذا الشاب الذي لم يستطع الاقتران بفنائة غنية يتعلل بأن الفتيات الغنيات سيئات الخلق . وحقيقة الأمر أن الشاب في حاجة إلى المال لتدبير بعض صوالحه ومن ثم تظهر الحاجة إلى تصيد بعض الأسباب التي تريخه أمام نفسه

عن فشله الذى صادفه . والمثل الشعبي السائر « قصر دبل يا أزعمر » يوضح هذا الميكانيزم تمام التوضيح .

وميكانيزم « الليمون الحلو » عكس السابق . فالتلميذ الذى يسكن فى قرية بعيدة عن مدرسته مما يضطره إلى قطع ما يقرب من حوالى أربعة كيلومترات بلجأ فى تسويق ذلك إلى القول بأن المشى الطويل يفيد صحته ويقوى عضلاته . وبما لاشك فيه أن هذا النوع من التبرير أعظم قدراً وقيمة من ضروب الاعتذار الأخرى التى نتعلل بها لأنه يعمل على زوال القلق ويرمى فى الوقت نفسه إلى الاستفادة من القوى النافعة فى الموقف ولعل المثل الشعبي « الفقر حشمة » يوضح هذا المعنى فى تسويغنا للفقر !

وهناك مبدأ مضر كل الضرر من الناحية النفسية كثيراً ما نلجأ إليه لتسويق وتبرير المواقف التى تعرض لنا فى حياتنا ألا وهو مبدأ التوازن . فتلجأ الفتاة القبيحة إلى القول بأن المظهر الجميل ليس له من الأهمية ما للنجاح فى الدراسة . وكثيراً ما نسمع الناس يقولون إن الجمال والذكاء لا يجتمعان !

وقد نلجأ إلى تفسير الدوافع تفسيراً جديداً يلائم الحالة التى نحن بصدددها فقد يبدأ المرء فى سلوك ما ويظهر له فيما بعد صعوبة الاستمرار فيها بدأ فيه ومن ثم تبدو له ضرورة تفسير الدوافع التى أدت به إلى هذا السلوك تفسيراً جديداً . مثال ذلك شخص عاد إلى التدخين بعد ما صمم على الإقلاع عنه فيبرر ذلك بقوله إنه كان يرى من وراء إقلاعه عن التدخين إلى إظهار قدرته على التدخين وعدمه متى شاء ومنى أراد . والتسويق صورة أخرى من خداع النفس . فإننا نميل إلى تأجيل العمل غير المرغوب فيه وعن هذا الطريق نؤجل الضيق المصاحب لهذا العمل .

وهذا النوع من التبرير يمكن رده إلى قائمة التبريرات التى تتم عن طريق السلوك لا إلى التى تتم عن طريق الإعفاء اللفظى . فتأجيل العمل يعطينا من الضيق المصاحب له وكثيراً ما نذهب إلى السحر أو ما يشبه السحر كعذر لتخفيف به من المسئولية . كم هى شائعة الرغبة فى الاستحواذ على شئ فى مقابل لاشئ . فنعتقد أن الحقائق يمكن أن تتم بنوع من السحر . فيهيب بالإيحاء الدائى راجين من ورائه أن نكتسب عادة جديدة أو نفلح عن عادة قبيحة ناسين أن اكتساب أية عادة أو الإقلاع عنها يتطلب جهداً ويعتمد إلى حد ما على تغيير الظروف أو على الأقل تغيير المؤثر . كل هاتيك الوسائل من لوم النفس ولوم الغير والإهابة بالسحر والتسويق إنما

نلجأ إليها لكي تعطينا من المسؤولية أو على الأقل تخفف من وقعها . ولكن ألا يمكن القول بأن للتبرير فائدة ؟ لا يمكن القول بأن التبرير أمر مرغوب فيه . فإذا كان للتبرير قيمة من حيث أنه يقلل حدة الشعور بالقلق فإنه بهذه الصورة حل غير ثابت وطريقة غير مأمونة للتوافق . فالتوافق الصحيح أساسه مواجهة المشاكل مواجهة صريحة . أما تجاهل المشكلة ومحاولة حلها حلاً مؤقتاً لا يمكن أن يكون مؤدياً إلى الطمأنينة النفسية التي هي أساس الحياة السعيدة . إن كل مشكلة يواجهها المرء تشعره بنوع من التوتر النفسى وخير طريقة لزوال هذا التوتر حل هذه المشكلة على الوجه الصحيح . ويتطلب حل المشكلة قدراً من الذكاء والتبصر لمعرفة الوسائل التي يتم بها هذا الحل فقد يلجأ المرء إلى الحلول الوهمية كالاندفاع في التخيلات الوهمية ظناً منه أن هذا كاف في حل المشكلة ، أو قد يتخذ من المشكلة نفسها وسيلة تعفيه من المسؤولية وسبباً يبرر به عدم توافقه مع المجتمع الذي يعيش فيه .

إن مشاكلنا النفسية في بعض الأحيان وسيلة نجنى من ورائها بعض الكسب لأنها تعطينا من القيام ببعض الأعمال البغيضة وتجعلنا أكثر جذباً للانتباه وفي موضع الرعاية من المحيطين بنا ، وتبرر لنا موقفنا بإزاء أنفسنا وإزاء الغير . وقد يعترض البعض أن كثيراً من المشكلات لا حل لها . وإذا افترضنا صحة هذا الاعتراض فعلى المرء أن ينظر إلى المشكلة من نواح عدة ولا يقتصر في نظره على الناحية الشخصية وحدها وأن يفتن إلى الجوانب الأخرى ويقويها رابطاً لها بآماله وآمانيه .

وقد يكون للتبرير فائدة كما هو الحال في ميكانيزم « الليمون الحلو » لأنه يرمى إلى الاستفادة من القوى النافعة في الموقف . وعلى الجملة فخير طريق للتوافق إنما يكون على أساس من مواجهة المشاكل مواجهة صريحة .

كمال الدين عبد الحميد نابيل